من تراثنا الحديث

الادب العربي في المغرب الاقصى

محمد بن العباس القباج

مات الناقد المغربي محمد بن العباس القباج في نهاية يونيو الفارط (1979) . ذكرت بعض الصحف وفاته مرفقة بإشارة سريعة للعلامات الدالة في حياته ، واكتفت بعضها باعلان خبر الموت ، أو الصمت . موت هذا الناقد الهام من ناحية ، وموقف الصحافة والجهات المهتمة بالمجال الثقافي من ناحية ثانية ، يرسمان لنا جانبا من وضعية الثقافة المغربية .

النسيان ، العقوق ، هل هناك ما هو ابشع ؟ لنكن واضحين . لم يقم اي مثقف (ناقد) مغربي لحد الساعة بما قام به محمد بن العباس القباج . جمع قصائد الشعراء الذين كانت لهم قيمة (مهما خضعت الآن للمناقشة والمراجعة) في كتابه « الادب العربي في المغرب الاقصى » (جزءان) ، مصحوبة بتقديم للكتاب ، ولكل شاعر على حدة ، أو تقديم بعض الشعراء لنتاجهم . كان هذا في سنة 1929 . قليلون هم الذين يتذكرون هذا الكتاب الذي لم يطبع للمرة الثانية ، رغم اهميته . وطيلة مرحلة الثلاثينات والاربعينات مارس النقد بمفهوم كلاسيكي بسيط ، يعتمد المعايير والمقاييس المتداولة انذاك ، مجادلا ، ومناقشا . عندما كنت اشيد للمرحوم بكتابه كان يضحك ، يرفع نظارته ، وهو جالس بهدوئه وراء المكتب ، يقول لي : هيات هذا الكتاب وأنا ما ازال طفلا . كانه كان يحاكمني ، يحاكم من أتوا بعده ، وخاصة منذ 1956 . لك الحق ايها السيد الجليل . هؤلاء الناس ينسون ، ونحن نوصف بالغي والعصيان والعقوق ، ولا نملك الا ان نقدر شجاعتك ووطنيتك . يقول : الا تعلم ان أبا القاسم الشابي اشاد بكتابي وتحدث عنه، اقول : قرات ذلك في « الخيال الشعري عند العرب » ، ويستمر الحديث ، ويغيب فجأة وانا ابحث من خلال انهيار جسدي عن لحظة تصلني به . كل من انقطع عن الكتابة نسيناه ، وكل من خرج على قبيلتنا ـ قناعتنا اعتبرناه عدوا يستحق الشنق ، والدفن ، وهو على قيد الحياة . هل ارثيك ام ارثي الثقافة المغربية ؟ لا هذا ولا ذاك ، أسجل فقط كلمة صادقة قلتها لك .

كلمة او كلمتان ، وبعد ، ماذا سيبقى لنا منك ؟ ذكرى رجل ارقه نسيان المشارقة للمغاربة ، فراح يستنجد بكل ما تقع عليه يده ليعلن هويته أمام الاستعمار ، يدفع بالشعراء نحو صقل أعمالهم ، يغاصمهم ، ويعنف بهم. كانت رؤيته محدودة لانه كان كلاسيكيا . هذا طبيعي . كان يحب القديم انفسكم . ماذا فعلتم ؟ ماذا فعلنا ؟ يكفي انك وضعت كتابك اليتيم سنة

والمجاده . هذا طبيعي . كان وكان . لا تحاكموه بعين عمياء . حاكموا انفسكم . ماذا فعلتم ؟ ماذا فعلنا ؟ يكفي انك وضعت كتابك اليتيم سنة 1929 . وتشرد الصورة ، يشرد القلب ، وما زلنا نخدع انفسنا . هل يكفي أن نختلف مع احد في الرأي حتى نمحوه ؟ هذا واحد من اسئلة « الثقافة الجديدة » .

تحية لك ، وتحية لمن لا ينسون ، نثبت في هذا العدد بعض النصوص الواردة في كتابك « الادب العربي في المغرب الاقصى » ، اولها مقدمتك للكتاب ، وما كتبته عن علال الفاسي ، ثم ما كتبه كل من محمد الفيري ، ومحمد المكي الناصري ، وعبد المالك البلغيثي ، معرفين بحياتهم ، وتجربتهم، ومفهومهم للشعر . هذا قليل . نعم ، ولكن تقبل منا ، انت الذي صادقتني وانا في عز المراهقة .

محمد بنيس

مقدمة

منذ سنتين كنت في مجمع ضم ثلة من ادبائنا وعلية من مفكرينا فجرى ذكر الادب العربي التي تطور في فجر هذا القرن تطورا محسوسا وساير العلم والحضارة في تقدمها وارتقائهم فساقنا الحديث في الامة العربية من قطر الى قطر واستعرضنا امامنا شعراء العراق والشام ومصر والسودان والمهاجر وتونس والجزائر فاذا بنا ـ وان كنا بعيدين عن بعض تلك الاقطار ـ ندرك حق الادراك ونعلم علما يوشك ان يكون يقينا مقدرة اي اديب من ادباء كل قطر ونعرف حق المعرفة المكانة التي تبوأها من البيان والبراعة والابتكار ، وما ذلك الا من مزايا حركة النشر والتاليف التي احدثتا وانامتنا كثيرا ومن عظيم اهتمام اهل كل قطر بشعرائه وادبائه حيث قاموا اجل قيام بنشر نبذات لفكارهم وثمرات قرائحهم .

هذه النظرة هي التي القيناها على الشعوب العربية فسرتنا انتم سرور وطفحنا بها بشرا واغتباطا ، ولاكن لمة حانت منا التفاتة الى قطرنا المغربي الذي هو جزء من اجزاء الامة العربية ونظرنا هل له مثل هذه السمعة الادبية والشهرة العالية ، وهل اوتي ادباؤه وشعراؤه ذكرا يرفع مقامهم ويطير شهرتهم الفينا من خمول الذكر ما لا ترضى به امة تنشد الحياة وتؤمل ان يكون لها مركز في الوجود .

في ذلك الحين جال في ضميري لاول مرة ان اتصدى للقيام بجمع تاليف يضم بين دفتيه تراجم شعرائنا ومنتخبات من شعرهم ليعطي لكل قارىء صورة صادقة من الشعر المغربي ويفيد كل باحث في الامة المغربية مبلغ تدرج الادب فيها وطرق تفكير شعرائها .

وما برح هذا الامل يتردد في ذهني ويقوى في نفسي الى أن رأيت الفرصة سانحة والاسباب ميسرة لاخراجه من حيز القوة الى الفعل فوطدت العزم وتقدمت للعمل .

غايتي من جمع الكتاب :

مضى على الادب في الامة العربية فترة غير قصيرة لا يخرج عن موضوعات معدودة : المديح والهجو والرثاء والغزل والالغاز حتى ليتعجب الباحث في تاريخ الآداب العربية منذ القرن الخامس الى أن تكونت هذه الحركة الحديثة في مصر والشام في اواخر القرن الماضي حيث لا يكاد يوجد من ينتمي الى الشاعرية الصحيحة او يدعي النبوغ فيها والاستحواذ على ناصيتها الا وهو يبدىء ويعيد بين هذه الموضوعات الخمس كان الآداب العربية وقف عليها وكأن اللغة لا يتسع صدرها بعد لما كانت تتسع له في العصور الاولى المزدهرة .

وقد كان الاديب المغربي لا يعرف طبعا الا هذه الموضوعات التي ورثها عن العصور المتاخرة فلا يكاد يتجاوزها غالبا إلا لذا كان ذلك عرضا غير مقصود ، وهو لعمر ابيك لايلام في ذلك اللهم الا اذا كان يلام الادباء امثاله في بقية الاقطار الذين كانوا يعيشون في مثل وسطه وبيئته قبل ان يطلع هذا العصر الحديث بعلومه الجديدة وعجائبه المدهشة التي تستفز النفوس وتوقظ جذوة الشعور .

ومنذ عهد قريب وصل الى المغرب الاقصى صدى تلك النهضة الفكرية التي انبعثت في الشرق العربي واحدثت انقلابا في الافكار والاساليب فعاد ادباؤنا الذين لم تتأصل فيهم جذور تلك الوراثة المذكورة آنفا ولم تتعود بعد افكارهم الجمود على تلك التقاليد والاقتصار على تلك الاساليب الى أن يشحذوا قرائحهم من جديد ويوجهوها الى ما فيه نفع الامة ويعود عليها بصلاح هيئتها الاجتماعية من استنهاض الهمم ولفت الانظار الى الحالة التي وصل اليها الشعب من جهل عام وانحطاط في الاخلاق وعبث بالدين .

ثم نشأت بعد ذلك طائفة من الشعراء الحي - واشعار هؤلاء ملء الافواه وحديث المنتديات - فالتهبت جوانح ذلك النشء وانتقدت افكارهم واهتزت عواطفهم فاذا في المغرب الاقصى شعر جديد طفى فيه من جمال الاسلوب وسهولة الالفاظ وصفاء الديباجة وسمو الخيال ما يبشر ان لهذا القطر مستقبلا زاهرا .

فالادب المغربي اليوم يمثله رجال هذه الطبقات الثلاث :

طبقة ادبائنا الكبار الذين يمثلون ادب الماضي بطلاوته وجناساته وامداحه وتغزلاته .

وطبقة المخضرمين الذين جمعوا بين الحسنيين وضربوا بالسهمين فنالوا من ادب الماضي اوفى نصيب واكبر حظ واخذوا من الادب الحديث بعض معانيه ومقاصده فافرغوها في قوالب ذلك الادب فكانوا خير واسطة قائمة بما يجب عليها للماضي وللحاضر .

والطبقة الثالثة وهي الطبقة النابتة التي تربت وتثقفت في عصر تحلق فيه الطيارات في الاجواء وتخترق فيه السيارات شاسع الاطراف وتعم آلة البخار والكهرباء اغلب البقاع وتشاهد ما تخرجه العقول من الابداع والاختراع فجاءت افكارها مطابقة لروح العصر مناسبة لرقيه وحضارته نوعا ما .

هكذا ارتأيت ان ارتب هذا الكتاب فترى فيه الطبقات الثلاث متناسقة يأخذ بعضها برقاب بعض ، وان لم يكن ذلك واضحا اتم الوضوح بين الطبقتين الاوليين . بيد أن الناظر تتجلى له الاولى في اول الجزء الاول ، وما يكاد يصل الى ثلثه الاخير حتى يشعر أنه انتقل الى الثانية .

وهكذا ايضا ينبغي ان يفهم ادبنا ويدرسه من اراد ذلك فيدرس ادب كل طبقة في محيطها ووسطها ويعرف كيف ينتقد انتقادا صحيحا نزيها .

ولنا رجاء أن يقوم من كتابنا من يرى في نفسه اهلية واستعدادا لذلك الانتقاد فيكون قد افادنا كثيرا وخدم ادب قومه وصدع بالحق دون خشية او ريبة . لاسيما ونحن في الطور الاول من الانتباه والنهوض وقد اصبحنا بحاجة ماسة وشدة افتقار الى النقد الادبي لنتبين موطن الضعف وموضع الخلل في ادبنا وتفكيرنا فنسرع لاصلاحه وتقويمه .

ولقد كنت اود أن انهض بهذا العبء وامزج هذا الكتاب بالنقد ولاكن لوفور ما عندي من الاشغال وضيق الوقت تأخرت عن ذلك وتراجعت عن كل ما كنت اريد . وحسبي الآن أن اقدم للناطقين بالضاد من ابناء قومي ثمرة مجهودي منذ سنتين مجردا عن كل نقد . وعسى أن أكون قد قمت ببعض ما يجب علي نحو الشعب وأدبه .

فاذا طالعت ايها القارئ الكريم هذا السفر وعلمت منه اسماء بعض شعرائنا وعرفت مطروقاتهم المختلفة ومتجهاتهم وادركت مقدرة كل واحد منهم والمرتبة التي يشغلها في عالم الادب مع صورة صغيرة من حياته فان ذلك هو غايتي من تأليف هذا الكتاب .

رباط (المغرب الاقصى) 15 - 7 - 1347 محمد بن عباس القباج

- محمد علال الفاسي -
- ترجمته -

في هذا الوطن المغربي شاب يرى من واجباته ان يعتز بدينه ويفتخر بقوميته ، ويتشبث بالفضيلة والمروءة وبكل المبادىء الحق التي دعا اليها الاسلام وجاء بها القرآن .

فلكم للشاب المثقف غيرة الملتهب حمية وحماسة يقدمه فئة ترسم طرق الاصلاح وتبذر بذور العمل والاجتهاد وتنهج منهج الطامحين الى المعالي وتتلقى بصدرها الرحب سهام الانتقاد والتعنيف وتقدم نفوسها ضحية في سبيل ترقية الافكار وشحذ العزائم وبعث الهمم ، وفي طليعة هذه الفئة محمد علال الفاسي الذي اعترف له الشباب الحي بعزيمته وصراحته فمنحه لقب (شاعر

الشباب) عن لياقة وجدارة .

ولد بفاس في أواخر شوال سنة 1326 هـ. وربي في حجر والده العلامة الشيخ عبد الواحد الفاسي احد أعضاء المجلس العلمي بفاس واحد أبناء تلك العائلة الفاسية الشهيرة التي مرت بك الاشارة اليها في ترجمة عمه الشيخ عبد الله الفاسي ، وقد تلقى دروسه القرآنية والعلمية تحت نظر والده الذي افرغ وسعه في تهذيبه وتنمية معلوماته وغرس الفضيلة والمبادىء القويمة في قلبه حتى نشأ مثالا للعفة والنزاهة وصحة العقيدة وصدق اليقين .

وهو الآن لا يزال يتلقى دروسه العلمية في كلية القرويين الشهيرة بهمته المعروفة اعانه الله وسدده .

أما نشأته الشعرية فتبتدأ من سنة دخوله للكلية القروية حيث وجد من نفسه ميلا غريزيا الى الادب وصوغ الشعر . فكان اذا خرج من الدروس العلمية اشتغل بمطالعة الكتب الادبية والدواوين الشعرية قديمها وحديثها ثم لم يشعر الا وهو يريد معالجة الشعر فقال البيت والبيتين وهكذا بقي يتدرج الى ان تفتحت قريحته وترقت مداركه وبلغ مرتبة الشفوف بين شعراء الشباب، وفي مختار شعره الذي نشرناه له في هذا الجزء ما يحقق لنا انه سيكون باذن الله هو شاعر المغرب وبلبله الصداح .

- ترجمتي بقلمي - (محمد القري)

ولدت كما بخط والدي صبيحة يوم الاربعاء رابع رمضان سنة 1317 هـ. واعتنى بي والدي جزاه الله عني افضل الجزاء اشد اعتناء فجلسني للقراءة بين يديه في السنة الخامسة من عمري وصار يلقي علي كلمات من القرآن ويعلمني حروف الهجاء تدريجيا الى أن تدرب لساني على اخراج الحروف من مخارجها المعروفة وانطلق لساني من كل عقدة ولثغة تكون في الصغار غالبا بسبب اهمال والديهم اياهم كما اهملتهم الطبيعة في ابان طفوليتهم واعادة الالفاظ التي نطقوا بها محرفة تلذذا بها وبسماعها منهم كذلك واطلاق السراح لهم أن يتكلموا بما شاءوا بل ربما دربهم على الوقاحة والسباب والحط من قدر ذوي الاحساب والانساب حتى من قدروا لديهم انفسهم رغبة في ارضائهم وتنازلا مع احلامهم فيتشبعون لهم بذلك في المقوق ثم يتشكو زعنهم لما يشبون فيكونون هم الجناة عليهم وعلى انفسهم وفيهم حينئذ يقال (على اهلها تجني براقش) .

لم يشأ والدي أن اكون كأولائك فالتزم ان يربيني بنفسه وان يعلمني في داره في بيته في مكتب من المكاتب التي لا يتخرج منها الا السفهاء والسفلاء ، وان تخرج منها نادرا احد فقصارى ما يحفظه بها بعد ان يقضي مترددا عليها ازيد من عشر سنين القرآن فقط فكان اول ما بدأ به في تعليمي ان حفظني كتاب الله العزيز الذي يعتني به المغاربة قبل كل شيء - وحبذا ما به اعتنوا لو كان اعتناؤهم به حفظا وفهما - فحفظته وانا ابن سبع سنوات في سبع ختمات مع حفظي لمتن المرشد في المدة نفسها ثم الزمني بحفظ عدة مصنفات فلم ابلغ العاشرة من عمري الا وانا استظهر منها جملة وافرة حفظا كما تعهده في حفظ الانسان حالة صغره من دون ان يكون مشتغل الفكر بكل ما يكوز حجر عثرة في سبيل حفظه وثباته واستحضار محفوظاته عند الحاجة اليها منتح العين في مباهي الملاهي التي تتبرج امامه مستهوية له بزخرفها وبهرجتها ومتزينة له بابهر حلاها وابهاه كل ذلك وقاني الله منه بفضل قيام والدي على صيانتي وتربيتي وحفظ حمائي من ان يتسرب اليه داع من دواعي الصبا فيتخطفني او تهوى بي ريح الهوى في مكان سحيق

وفي المدة التي كنت اقرأ فيها المتون كان يلقي علي دروسا ليلية في شرح الاجرومية ويلقي الي الامثلة التي تسهل لي قواعد النحو في كل آن حتى في أوقات الاكل والنوم ويأتي لي بالامثلة المشتملة كلماتها على الحالة التي أنا متصف بها في ذلك الوقت .

لم ابلغ الثالثة عشرة من عمري الا وانا اعرب أي مثال عرفت اعرابه من الدروس التي كان يلقيها الي مع ذكر شاهد القاعدة من الالفية فكان ذلك عونا لي على فهمها بعد .

وفي الرابعة عشرة دخلت القرويين لاتمم بها قراءتي فتوفقت والحمد لله بارشاد منه الى القراءة على استاذ الاصلاح وشيخ الارشاد ومهذب الافكار سندي في كل معلوماتي ومرشدي من هوة الضلال سيدي محمد بن العربي العلوي قاضي فاس الجديد فقرأت عليه ما شاء الله أن اقرأ من نحو وأدب وفقه وغير ذلك فكانت دروسه التي يلقيها علينا غير خاصة بالفن الذي يقرئه بل

لا تخلو من حكم وآداب وارشادات وتحذير من العقائد الفاسدة التي عمت وطمت ومن الفوائد السافلة المردية لشعبنا المسكين في مهاوي التقهقر والانحطاط والذاهبة ـ كما قدر الله ـ بالاخلاق والاموال والانفس ومن تنبيه على ما ينبغي للمتعلم سلوكه وانتهاجه في تعلمه من عدم اتكاله على دروس القرويين وحدها بل ينبغي له أن يجتهد بنفسه لنفسه ليدرك ويحصل وكان تعليمه ولا زال ممتازا عن سائر تعاليم المدرسين ودروسهم بحسن العبارة وانتخاب أساليبها التي ينتفع منها الطالب أي انتفاع والتي تقرب له الفهم ويستفيد منها لغة وانشاء وحسن القاء اكثر من انتفاعه منها في موضوع الدرس الملقى ان لم اقل بتساوي الانتفاعين .

وكم كان ـ ولا زال أيضا ـ يخصني بآرائه الصائبة وارشاداته العديدة ووصاياه النافعة في سبيل الخطة التي يجب على أن اسلكها في قراءتي فاستفرت بآرائه وافتديت بافكاره وسرت على نفقه فشغفت بسبب قراءتي ـ للغة ودواوين الادب ـ بحفظ الاشعار والقصائد الطوال فاعملت العزم على حفظ ديوان النابغة وديوان علقمة والخنساء والبعض من ديوان حاتم والمعلقات العشر وجزء كبير من ديوان امرىء القيس والبعض من ديوان عنترة وقسم غير نزر من ديوان الحماسة وعدة قصائد من ديوان أبي عباده وأبي الطيب والمقصورة الدريدية وغير ذلك من مقطعات وقصائد حتى كنت اقدر محفوظي من الشعر بما ينيف على اثني عشر الف بيت من خصوص ما ذكر وانا اود الآن ان لو عكفت في المدة التي حفظت فيها بامر من والدي مختصر خليل على حفظ هذه الدواوين ووسائل البلغاء ومقامات الحريري وبديع الزمان ليكون اعون لي على قرض الشعر وصناعة الانشاء ـ وان كان المختصر أيضا يحفظ فنا لا غنى عنه ـ ويا ليت ذلك الحفظ دام وليت ذلك المحفوظ ثبت .

اما الآن وقد كلفني الدهر بما لا يخفاك وضربت على دولة الايام الغشومة تلك الضرائب اليومية التي انا ملزم بادائها ـ كغيري من كل ذي عائلة ولو على خصوص والديه ـ كل مطلع شمس فلا اقدر على حفظ سطر وحتى ان حفظته فسرعان ما تذروه ريح التكاليف وتنسفه عواصف الهموم .

ولكن ان تاخرت عن الركب ومزني قرنائي واترابي (فقد يدرك المبطيء من حظه ـ ولا ييأس بائس أن يغنم) .

ولا انسى ان أقول ان الفضل العظيم علي فيما انا انظمه الآن من القصائد او احبره من الرسائل هو للاستاذ المذكور جزاه الله عني خيرا فلا أزال اذكر فضله واشكره ما بقي في (عرق ينبض وما ان في السماء نجم) .

على انني لا انكر فضل غيره من الاساتذة الذين انتفعت بالقراءة عليهم كشيخ الجماعة المرحوم سيدي احمد بن الخياط والمرحومين الجليلين السيد المهدي الوزاني والسيد الفاطمي الشاوي والمحدث للثبت الحجة المصلح العظيم الشيخ بوشعيب الدكالي وزير العدلية سابقا والمحدث الاصولي البحث سيدي محمد الحجوجي وزير المعارف الآن والمحدث المؤرخ النسابة الشيخ عبد الحي الكتاني واستاذ التحقيق والافادة صديق سيدي محمد بن العربي العلوي بل اعز اصدقائه للسيد عبد السلام السرغيني المدرس بالمدرسة الادريسية والاستاذ المعقولي المصرف للسيد محمد بن سعيد الدكالي المكناسي والفقيه الاصولي الوقاد العقل السيد عباس بناني والفقيه المتثبت النصوح النفاعة سيدي محمد ابن الحاج .

هؤلاء هم اساتذتي وشيوخي الذين انتفعت عليهم اكثر من غيرهم (ولاكن في القمر ضياء والشمس اضوا منه) هذه نشأتي و (هكذا فهدي) .

« محمد المكي الناصري »

(حياتي)

حقا ان هذه الحياة لا تزال فتية لم تبلغ مداها ، ولا تزل ضاحكة مستبشرة ممتلئة بالآمال، فان اعطيت اليوم عنها صورة فانما اصور جزءا ضئيلا من حياتي الفتية التي لم يحن عهد خصبها وانتاجها كما أرجوه لنفسي وكما تفرضه علي بلادي العزيزة ، واذا كانت نفوس الشباب لا تعرف غير التفاؤل والطموح ، وآمالهم في الحياة لا تعرف الوقوف عند الغايات والحدود ، فانا اؤمل ان اجد في الحياة المقبلة مجالا فسيحا للخدمة الوطنية والعظمة الذهنية ، ان شاء الله تعالى .

(حياتي في التعليم)

في البيت : قرأت في دفتر مواليد العائلة أن ولادتي كانت في ضحى يوم الاربعاء 24 شوال سنة 1324 هـ . وقد نشأت في وسط معروف بالتدين والفضيلة ومحبة العلم ، متشبع بروح الاعتدال وربما كان في هذه النشأة كثير من عناصر التربية القويمة ، كانت الحرية حقا من حقوقي المحفوظة فلم أكن اشعر في يوم من الايام أنني اسير عن غير وحي مني او علي غير ارادة شخصية وانما كان صوت الضمير هو رائدي الوحيد في طفولتي داخل البيت وخارجه ، وكانت الفضيلة تحبب الى نفسي بالحكايات والحكم والامثال وسائر الوجوه التي تفعل فعلها في نفوس الناشئين حتى عانقت الفضيلة لاول ما عرفت الحياة واندمجت في نفسي كانما هي جزء منها لا يتجزأ وإن طال الامد وكان المجد العائلي والذكرى التاريخية انما يذكران امامي في صيغة تشعرني دائما بوجوب احتذاء مسالك الاجداد السالفين لا بالفخر المجرد ولا بالاعجاب المطلق وكانت المعرفة تصور امامي في أحسن صورة تراها العين وتلذ للخيال ففضلتها على سائر المظاهر والالعاب التي يسر بها الاطفال ويلحون في سبيل الحصول عليها ، وكان كل حظي من الطفولة أن ينضاف الى محفوظاتي شيء جديد في كل يوم وان أزيد في البيت على ما حفظته في المدرسة ، وكان كل نصيبي من السرور أن أردد امام والدي وزملائي جملة حفظتها أو كلمة قرأتها في لهجة العارف الواثق من معرفته وكان التشجيع الادبي خير جزاء اناله مقابل نجاحي في حفظ أو فهم فكانت الدرجة التي ابلغها تقرأ دائما تقديرا يناسبها ثم اضع الى ما وراءها بدافع الاغراء والتشجيع حتى لا أقف عن النمو وحتى لا ادع الحركة واطمئن الى السكون .

هذه عناصر خير استفدتها من البيت وانا مدين له بها قبل ان اكون مدينا بها لغيره : شعور بالكرامة الشخصية واعتماد على النفس وحب للفضيلة وشره الى المعرفة الكاملة . وهكذا كان والدي رحمة الله عليه يسعى دائما الى تمكين هذه الاخلاق من نفسي وادماجها في شخصيتي الى آخر رمق من حياته ، ففي آخر ساعة لم يزل يوصيني بالمضي في سبيل العلم والاخلاص للمعرفة اخلاصا كاملا .

في المدرسة : كانت المدرسة مسرحا قد يعين على ظهور المواهب فكان الامل يبتسم لي فيها دائما وكنت أرى في المستقبل بارقة النجاح والخير كلما جاوزت درجة الى أخرى . وفي المدرسة حفظت القرآن الكريم وسائر المتون العلمية الاساسية مع دراستها دراسة اجمالية . ولقد كان من حسن الصدف أن اكثرية الاساتذة الكرام الذين تلقيت عنهم التعليم الاولي لا تمثل الجمود ولا تظهر بمظهر التعصب وانما كانت معتدلة الافكار ليبة الجانب الى حد كبير فكان هذا ـ مع خاصية الاعتدال التي كانت ظاهرة على والدي المرحوم ـ معينا لي كل الاعانة على ان أنشأ نشأة معتدلة لا جمود فيها ولا جحود وانما هي نشأة متبصرة في الامور تناصر الحقائق أينما كانت وتحارب الاوهام أيا كانت .

في المعهد : انتقلت من المدرسة الى المعاهد الدينية لدراسة علوم اللغة والشريعة دراسة تفصيلية فقضيت فيها نحو الخمس سنين تمتد فيها الدراسة والمطالعة من طلوع الفجر الى منتصف الليل ، وكان من سعادتي أن اتصلت بخيرة الاساتذة في البلد ومضرب الامثال في الاستقلال العلمي والمشاركة التامة فأصبحت كتلميذ خاص من تلامذتهم الخصوصيين وكنت محبوا منهم بعطف الاساتذة وحنان الآباء متأثرا بروحهم العلمية الخاصة تأثرا عظيما ، واذاكانت عادة الناس ان يحرصوا على مادة العلم قبل أن يحرصوا على روح الاستاذ الذي يبعثها في تلك المادة الجامدة فانا اليوم احرص ما اكون على تعرف هذه الروح واحتذاء خصالها العلمية النادرة المثال ، وانا ارجو أن أمثل من اساتذتي هذه الخصال قبل أن اقوم بوظيفة العالم ومسؤولية الاستاذ .

لقد ادركت من اساتذتي ـ طول عهد الدراسة ـ أن العالم يجب ان تكون له رؤى علمية خالصة ، روح مصطبغة بالعلم مخلصة للمعرفة اخلاصا لا حد له . روح تندمج فيها أجزاء المعرفة فتصبح وحدة متجانسة لا قطعا متجاورات يناقض بعضها بعضا . وادركت أن العالم لا يكون عالما بمعنى الكلمة الا اذا كان موالیا لسائر فروع المعرفة قديمها وحديثها يأخذ بخيرها وينتفع بثمرها فلا يكون عدوا للعلم ولا خصما للمعرفة وادركت ان العالم لا يستطيع أن ينفع الناس بعلمه ويرفعهم الى مستواه ويجعلهم مطمئنين الى سماعه مستريحين الى الاخذ عنه الا اذا كان منطقي العقل

متسلسل الفكرة حسن الترتيب يجعل اجزاء الموضوع الواحد سلسلة يأخذ بعضها برقاب بعض ويحدد كل جزء منها تحديدا معقولا يصبح معه تقريب المثال وأدركت ان نجاح العالم امام الجمهور منوط بما اوتي من خلابة قول وفصاحة لفظ وطلاقة لسان وما منح من فراسة صادقة ومعرفة تامة بنفسية الجماهير والجماعات وأدركت ان الخصلة الاولى والاخيرة لحملة العلم وورثة النبوة هي ان يكونوا صرحاء بالحقيقة مجاهرين بالحق مهتمين بأمر الدين والوطن محافظين على كرامة العلم وعزة الدين .

هذه الخصال هي ابقى الخصال التي عرفتها عن أساتذتي الكرام - اطال الله بقاءهم - وهي الروح التي كانت تنبعث من ثنايا دروسهم فتلقي علينا نورا أو ضياء وتعدنا لتحمل الامانة التي حملوها من قبل فكانوا امناءها المخلصين .

ولعمري ان هذه الصفات لهي أخلد الصفات التي تشبعت بها نفسي والتي أصبحت مكونة لهذه الشخصية التي أحملها بين جوانبي والتي أرجو أن أعالج تطبيقها - مجتمعة - في حياتي المقبلة فافلح في معالجتها والعمل بها اذا كنت مصحوبا بالتوفيق الالهي .

- حياتي في مصر -

رحلتي العلمية : حببت مصر الى نفسي منذ الصغر فقد كنت أجد صحفها ومجلاتها في مكتبة العائلة فاقرأها وابتهج بقراءتها عن معرفة وغير معرفة وكنت اقرا منشآت رجال الاصلاح الاسلامي كالشيخ جمال الدين ومحمد عبده ، وكان والدي وأخي الاكبر يهنيني كل منهما بالرحلة الى مصر لتكميل الدراسة ويذكران لي مصر باعجاب واعتبار كأنما رحلتي ستكون مكافاة على هذا الجهد المتواصل الذي ابذله في سبيل التحصيل والاطلاع . وازداد حبي لمصر وشغفي بالرحلة اليها عندما اتصلت بأساتذتي الاكرمين . فان من بينهم من تخرج في مصر وقضى فيها شطرا من حياته غير قصير . ومن بينهم من درس الحركة المصرية دراسة عميقة مفصلة من مفتتحها الى موقفها الحاضر فكان اسم مصر يتردد على اذني في كثير من الدروس والمحاورات وكانت أحاديث نهضتها العلمية وقصص رجالها تقتبس من وقت اساتذتي وزملائي جزءا غير قليل .

كان لهذا كله اثر في النفس دفعني الى ان أعقد رحلة علمية الى مصر وقد تهيات هذه الرحلة بمساعدة رجال التضحية والاخلاص فكان سفري من الوطن العزيز في شهر صفر الخير من السنة الماضية 1346 . وبمجرد ما وصلت الى مصر بذلت جهودي في سبيل الانضمام بمدرسة دار العلوم او مدرسة القضاء الشرعي ولاكن قوانين مدارس الحكومة المصرية لم تكن تسمح بقبولي في سلك التلامذة المصريين فانصرفت عنهما الى الازهر الشريف وعالجت الدراسة فيه مدة كافية للتجربة فوجدت فيه اشياء كثيرة لا تزال الهمم مبذولة في سبيل تكميلها واصلاحها الى الآن واقتنعت عندا ذلك بان المعرفة في مصر يجب أن تؤخذ من كل مكان فمن الصحف والمجلات الى الجمعيات والنوادي ومن الجامعة الازهرية الى الجامعة المصرية وهكذا يفعل المومن بالحكمة التي هي ضالته يأخذها حيث وجدها وعند من وجدها وانا الآن ماض في طريق الدرس والاطلاع مقبل على العلم بكل شغف واخلاص وليس رائدي في ذلك الا مثل أعلى يملا نفسي من اعماقها وارجو ان أصل اليه عما قريب واذا كان كثير من الناس يودون أن يعيشوا لانفسهم ويسعون ليرضوا شهواتهم فانما أربي نفسي على أن اعيش للشعب وارضي الشعب قبل ان اعيش لنفسي وارضي نفسي . واذا كان عبء الغربة ثقيلا على النفس والانقطاع الى العلم صعب المراس فان ذلك كله هين على نفسي في جنب ما استعجله من خدمة للدين واخلاص للوطن . ففي سبيل الله هذه الرغبة الطاهرة وفي سبيل الوطن هذا العناء المحبوب .

- حياتي المشتركة -

تصنيف وتدريس : بينما كنت في الوطن كطالب يتلقى الدروس ويكتب المذكرات كنت كاستاذ يلقن العلم ويشتغل بالتاليف فقرأت مع فريق من زملائي في دروس عامة بعض مصنفات اللغة والشريعة والفت بعض مؤلفات لم يطبع منها الا مؤلف صغير صدر منشورا باسمي (اظهار الحقيقة) فعلقت عليه الصحف والمجلات ما بين مصرية وتونسية وجزائرية ومغربية وقامت حوله ردود ومعارضات كانت لها ضجة في المجتمع المغربي من اقصاه الى اقصاه اما في رحلتي المصرية فقد صرفت أكثر جهودي في الكتابة عن الموضوعات التي اهتم بدراستها الآن واحيانا

ألقي بعض المحاضرات في الجامعة المصرية كطالب من طلبتها الشرقيين المتطوعين او في جمعية الشبان المسلمين كعضو من أعضائها المؤسسين العاملين .

شعر وكتابة : كانت نشأتي البيتية معينة لي على ان أقرض القريض واعالج الكتابة من حين الى حين وكانت تلك الروح الادبية التي تملا نفس اخي العزيز ـ حفظه الله ـ ينفذ منها الى نفسي شعاع قوي من اشعة الادب الحارة غير ان هذه الروح ـ بتاثير البيئة التي اعيش فيها ـ لم تكن تدفعني الا لنوع خاص من الشعر والكتابة : هو هذا الشعر الوطني الذي كان يرضي الجمهور المتنور وهذه الكتابة الاصلاحية التي كانت تقابل بالنقد ثارة وبالتحبيذ اخرى ، وبالاجمال لم يكن مجال الشاعرية امامي مجالا فسيحا وانما كان مجالا ضيقا محدودا الى درجة كبيرة وكيف ينسنى للشاعرية ان تفيض ولمواهب الشاعر أن تنمو في استمرار واطراد ما دامت دائرة الموضوعات الشعرية ضيقة لاسعة فيها ؟

حقا ان التربية على الفضيلة والزهد في لذات الحياة الشهوية واحتقار صبوة الشباب لتربية مهما يكن فيها من الخير والطهارة فهي تربية تكبت كل العواطف المشتعلة وتضعف كل المشاعر القوية ، انها لتقضي على هذه العواطف والمشاعر التي من شانها أن توقد نيران الشاعرية في نفوس الشعراء وأن تنمي مواهبهم الشعرية وأن تصقل نفوسهم حتى تجعلها شفافة تعكس على الناس كل ما وراءها من لذة وجمال ، وهل يستطيع احد ان يكون شاعر الناس ـ والناس لا يزالون ناسا كما كانوا منذ عهدهم الاول ـ دون أن يكون مرآة صادقة لهم يمثل كل ما فيهم من خير وشر ولذة والم وهوى ؟ كلا فلا بد أن يكون الشاعر كتلة احساس متدفق وعاطفة تنطق .

اما أنا فلا آسف على هذه النشأة التي نشأت عليها والتي لم يكن يلائمها ان انزل الى ميدان العواطف والمشاعر فابرز فيه بل أنا اشكر من صميم قلبي تلك الظروف التي حبطت الروح العلمية في نفسي مسيطرة على الذوق الادبي المتقلقل ، واني لاجد كل العزاء والسلوى في هذا الهدوء وهذه الطمانينة وهذا الشعور الجميل : هدوء النفس وطمانينة الضمير والشعور بتقدير الواجب ومسؤوليته في كل حين ، أجد العزاء عن الشعر والنبوغ فيه في هذه الاشياء التي لم تكن لتنبع الا من عين تلك التربية الخاصة وما اليها ، واني لاذكر بالسرور والرضى ذلك الحديث الذي جرى بيني وبين فريق من زملائي ـ شعراء الشباب ـ عند ما كنت في الوطن العزيز . سالتهم : هل حسن أن أمضي في معالجة الشعر او انصرف عنه الى غيره ؟ فقالوا في لهجة مخلصة لا رياء فيها ولا نفاق : كانك لم تخلق لان تكون شاعرا ولعل استعداد كللعلم اقرب من استعدادك للشعر ولعل البلاد ستنتفع بك كعالم دون أن تستفيد منك كشاعر ؟

لقد كانوا يستحسنون من شعري هذا النوع الذي يدور حول فكرة الوطنية ومبدا الاصلاح الديني ولاكن استحسانهم لم يمنع أن يكون لهذا الحديث اثر كبير في نفسي فلم أرحل الى مصر حتى تركت الشعر جانبا بسائر ضروبه وانصرفت الى الدراسة العلمية المستطاعة اقضي فيها الليل والنهار وصرت أواجه الحقيقة فيها وجها لوجه وأنظر الى الحياة نظرة واقعية ليس فيها شيء كثير من الابتهاج بالمظاهر ولا نوع من ذلك السرور العميق الذي يشعر به الناس في كثير من الاحيان ، فليس هنالك خيال يسيطر على نفسي فيوحي اليها بتلك الصور الشعرية البهيجة، وليس هنالك جمال يستهويني فاطمئن اليه اطمئنان المبتهج بالحياة الذي لا يقدر مسؤوليتها والذي لا يواجه ما فيها من حقيقة مرة وسراب كاذب ولعل من عرف حقيقة الحياة أو سار في طريق معرفتها دون أن يبسط عليها اشعة الخيال لا يمكن أن يكون شاعرا بمعنى الكلمة .

كم يلذ لي أن اخلع على نفسي حلة العاطفة ولبوس الخيال فاعكس على الناس ما اشعر به من الم الغربة أحيانا ولذة الطبيعة حينا آخر ولاكن هذا الخيال لا يقوم في نفسي حتى تقوم الى جانبه حقيقة هدامة لا تلبث ان تقضي على الخيال فيذهب ضحية الحقيقة والواقع ، ولعل فراسة زملائي فيها شيء كثير من الحق والصدق ، فانا لا أستطيع بعد اليوم ان أعد نفسي كشاعر من الشعراء وان كنت لا اغمط نفسي ما لها من حق في تذوق الشعر والاحساس بالشاعرية .
سيطبع هذا الكتاب الادبي مرة ثانية واكاد اثق ان اسمي سوف لا يذكر فيه بجانب الشعراء مرة اخرى بل أنا واثق أن كثيرا من هذه المسميات التي تحمل اسماء الشعراء في هذا الكتاب ستنزوي عن هذا الميدان في يوم من الايام قريب او بعيد .

ستعرض في سوق الادب المغربي بضائع كثيرة متنوعة ولاكنها كلها لا تقوى على البقاء ولاتقبل المزاحمة على السواء واذا كانت الانسانية تقذف بكثير من الناس يريدون ان يحتكروا لانفسهم كل حق وخير وجمال فانها لا تسمح بالبقاء والخلود الا لافراد بلغوا من العبقرية اقصى حدودها وحازوا من معنى الانسانية وقوة الشخصية اوفر نصيب مستطاع . واذا كانت الامم في مفتتح نهضتها تعنى بالادب ورجاله فانها عند ما تريد ان تستوي على سوقها لا تستطيع أن تجد في الآداب والفنون مقاييس الحرارة الكافية وعناصر الحياة الحقة ولا يمكن أن تسد حاجاتها الحيوية ولا ان يعترف بمكانها تحت الشمس كأمة في هذا العالم الا اذا وجهت كل ما لها من تضحيات وجهود نحو العلم للجي العلم الذي يبث الحياة ويمد الاحياء . فهنيئا لامة لها اديبها ولها علمها وهنيئا لامة يسيطر عليها العلم ويخلد فيها الادب .

مصر القاهرة 9 رمضان 47 هـ

« عبد المالك البلغيثي »

— ترجمتي —

ولدت بفاس سنة 1322 هـ وبها نشأت وقرأت الكتاب العزيز على اساتذة اجلة ثم لما ولي والدي رعاه الله عضوية مجلس الاستيناف بعاصمة الرباط اصحبني معه فاتممته هناك ثم لما ولي خطة القضاء بآنفا سنة 1333 ادخلني مدرسة ابناء الاعيان وبها قرأت على من كان بها من الاساتذة الفضلاء شيئا من العربية واللغة الافرنسية والحساب والجغرافيا ثم لما رجع والدي لفاس تحولت معه وتلقيت منه دروسا في مواضيع مختلفة ثم عاد لعضويته بعاصمة الرباط فمكثت مدة الاقامة بتلك العاصمة احضر مجالس السادات الاعلام واقتطف من رياض معلوماتهم ما تشتهيه الاعين وتلذه الارواح فقرأت على الفقيه العلامة المحدث الشريف سيدي المدني بن الحسني الرباطي فنونا أدبية وعلى الاخص بعض معلقات العرب كما قرأت عليه مختصر أبي الضياء خليل وتحفة ابن عاصم وخلاصة ابن مالك وعلى الفقيه العلامة المحقق الاديب سيدي محمد السايح الرباطي قافية ابن الونان بشرحه كما قرأت على غيرهما من علماء الحضرة الرباطية وانتفعت بهم وأغتنمت صالح ادعيتهم وقر الله جمعهم ثم ان الوالد رعاه الله انتقل لمكناسة الزيتون سنة 1341 متقلدا خطة القضاء بها فتحولت معه لها واشتغلت بالقراءة عليه منقولا ومعقولا وحديثا وغير ذلك وحضرت بها بالمدرسة الثانوية وقرأت على أساتذتها ما امكنني تحصيله من الحساب والتصوير ومبادىء علومها العصرية ثم انتقلنا لفاس سنة1343 وبها قرأت على مولانا الوالد الصحيحين والشفاء والاصول والنحو وغير ذلك كمختصر خليل والمنطق والسعد وفنونا من الادب ثم قرأت على ابن عمنا الشريف العلامة المحدث مولانا عبد السلام بن زعمر مختصر خليل وبعضا من همزية الامام البوصيري وعلى الفقيه العلامة المشارك شيخ الاسلام الشريف سيدي أحمد بن الخياط رحمه الله وعلى العلامة المحدث سيدي الفاطمي الشرادي رحمه الله وغيرهم من علماء الكلية القروية كالمنعم العلامة المحقق سيدي محمد بناني وعلى الشريف العلامة مولاي عبد الله بن ادريس العلوي الشهيرا بالفضيلي وعلى الفقيه المدرس سيدي محمد (فتحا) بن الكبير بن الحاج وعلى الفقيه العلامة الفلكي الشهير الشريف سيدي محمد (فتحا) الطمي كمية وافرة من علم التوقيت وعلم الهيئة وعلم التعديل والحساب وكان كثير المساعدة معنا رغما على ما هو منوط به من الاشغال حتى ان جل هذه الدروس تلقيناها منه بمنزله أطال الله بقاءه ، هذه ترجمة حياتي منذ خرجت للوجود الى يوم 5 محرم عام 1345 .

ثم اني منذ فرقت بين الشمال واليمين وانا أصبو الى الادب وأهله حتى انني جمعت كمية وافرة من أدباء المغرب للقرن الرابع عشر ضمنتهم في تاليف سميته المنار ولا زال تحت يد التنقيح وعن قريب يصدر بحول الله كما اني شارع الآن في شرح مختصر الافادة ذلك المختصر العجيب الذي تحق معرفته على كل اديب ولي ديوان شعر صغير وشرح على قافية ابن الونان مقتصرا فيه على حل المفردات الغريبة .